

بسم الله الرحمن الرحيم  
خصائص أهل السنة (٤)  
أوصاف أهل السنة (٣)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الخامس عشر: تعظيم الأمة لهم، واعترافها بفضلهم، وهو أمر ظاهر معلوم بالحس والتواتر لكل من سمع كلام المسلمين، يقول شيخ الإسلام: "لا تجد في الأمة عظم أحد تعظيماً أعظم مما عظموا به، ولا تجد غيرهم يعظم إلا بقدر ما وافقهم فيه، كما لا ينقص إلا بقدر ما خالفهم"<sup>(١)</sup>، فهم العدول الذين تقبل أقوالهم، ويحتج برواياتهم، ولو استعرضنا تاريخ الإسلام لوجدنا البارزين فيه في كل عصر هم أهل السنة الذين قاموا بالحق ودعوا إليه، وجددوا ما اندرس من أمور الإسلام، وجاهدوا في الله حق جهاده، بالنفس والمال والقلم واللسان، يقول إسحاق بن موسى: "ما مكن لأحد من هذه الأمة ما مكن لأصحاب الحديث؛ لأن الله قال: **وَلْيَمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ**؛ [النور: ٥٥] فالذي ارتضاه الله قد مكن لأهله فيه، ولم يمكن لأصحاب الأهواء في أن يقبل منهم حديث واحد عن أصحاب النبي -صلى الله عليه وسلم-"<sup>(٢)</sup>، إلى آخر ما ذكر.

فهؤلاء منهم العلماء العاملون؛ كما قال ابن قدامة -رحمه الله- في "تحريم النظر في كتب الكلام": "ومنهم الأولياء والصالحون، ومنهم الأتقياء الأبرار، والأصفياء الأخيار، أهل الولايات والكرامات، وأهل العبادات والاجتهادات، بذكرهم تزين الكتب والدفاتر، وأخبارهم تحسن المحافل والمحاضر، تحيا القلوب بذكرهم، وتحصل السعادة باقتفاء آثارهم، بهم قام الدين، وبه قاموا، وبهم نطق الكتاب، وبه نطقوا، وهم مفرغ الخلق عند الشدائد" إلى أن يقول: "فنحن أصحاب المقامات الفاخرة، ولنا شرف الدنيا والآخرة، ومن نظر في كتب العلماء التي أفردت لذكر الأولياء لم يجد فيها إلا منا، ومتى نُقلت الكرامات لم تنتقل إلا عنا، ومتى أراد واعظ أو غيره يطيب مجلسه ويزينه زينه بأخبار بعض زهادنا أو كرامات عبادنا، أو وصف علمائنا، وعند ذكر صالحينا تنزل الرحمة، وتطيب القلوب، ويستجاب الدعاء، ويكشف البلاء، والله در القائل:

ذهبت دولة أصحاب البدع \*\*\* ووهى حبلهم ثم انقطع  
وتداعى بانصداع شملهم \*\*\* حزب إبليس الذي كان جمع  
هل لكم بالله في بدعتكم \*\*\* من فقيه أو إمام يُبَّع  
مثل سفيان أخي الثوري الذي \*\*\* علم الناس خفيات الورع  
أو سليمان أخي التميمي الذي \*\*\* هجر النوم لهول المُطَّلَع  
أو إمام الحرمين مالكا \*\*\* ذلك البحر الذي لا يُنتزع

١- انظر: مجموع الفتاوى (١٠/٤).

٢- شرف أصحاب الحديث، ص: (٣٢).

أو فقيه الشام أوزاعيها \*\*\* ذاك لو قارعه الفُرا قرع  
أو فتى الإسلام أعني أحمدًا \*\*\* ذاك حصن الدين إن حصنٌ منع  
لم يخف سوطهم إذ خوفوا \*\*\* لا ولا سيفهم حين لمع<sup>(٣)</sup>

يقول الخطيب البغدادي -رحمه الله-: "وقد جعل الله -تعالى- أهله أركان الشريعة، وهدم بهم كل بدعة شنيعة، فهم أمناء الله من خليقته، والواسطة بينه -صلى الله عليه وسلم- وأمته، والمجتهدون في حفظ ملته، أنوارهم زاهرة، وفضائلهم سائرة، وآياتهم باهرة، ومذاهبهم ظاهرة، وحججهم قاهرة، وكل فئة تتحيز إلى هوى ترجع إليه، أو تستحسن رأيًا تعكف عليه، سوى أصحاب الحديث، فإن الكتاب عدتهم، والسنة حجتهم، والرسول فنتهم، وإليه نسبتهم، لا يُعرجون على الأهواء، ولا يلتفتون إلى الآراء، يُقبل منهم ما رواوا عن النبي -صلى الله عليه وسلم-، وهم المأمونون عليه والعدول، حفظة الدين وخزنته وأوعية العلم وحملته، إذا اختلف في حديث كان إليهم الرجوع، فما حكموا به فهو المقبول المسموع، ومنهم كل عالم فقيه، وإمام رفيع نبويه، وزاهد في قبيلة، ومخصوص بفضيلة، وقارئ متقن، وخطيب محسن، وهم الجمهور العظيم، وسبيلهم السبيل المستقيم، وكل مبتدع باعقادهم يتظاهر، وعلى الإفصاح بغير مذاهبهم لا يتجاسر، من كادهم قصمه الله، ومن عاندهم خذله الله، لا يضرهم من خذلهم، ولا يفلح من اعتزلهم، المحتاط لدينه إلى إرشادهم فقير، وبصر الناظر بالسوء إليهم حسير **﴿وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾** [الحج: ٣٩]»<sup>(٤)</sup>.

السادس عشر: أنهم يتركون الخوض فيما لا تدركه عقولهم، فهم لا يبحثون في غوامض العلم، والأغاليط والمسائل التي تغمض على الأفهام، أو القضايا التي تورث الشبهات والنزاع والتفرق بين طوائف الأمة، ولا يشتغلون بما لا يترتب عليه عمل، ولهذا كان شغلهم فيما ينفع. والكلام في هذه المسألة يطول، وكلام السلف فيها -رضي الله عنهم- وتحذيرهم من الخوض في الغوامض، والكلام في المسائل التي هي من جملة الأغاليط أو الغوامض كلام مشهور يرجع إليه في مظانه.

السابع عشر والأخير: أنهم يشاركون غيرهم في الكمالات، ويفردون بما لا يوجد عند غيرهم من الطوائف، فكل كمال يوجد في طائفة من الطوائف هو موجود موفور في أهل السنة والجماعة، ويوجد فيهم من الكمالات ما لا يوجد عند أهل الأهواء والبدع، فعندهم من صحيح المعقول، والقياس، وصحة النظر والاستدلال والمحااجة والمجادلة الصحيحة، والمكاشفة والمخاطبة، والذوق، ونحو ذلك -الذوق الصحيح السني- ما لا يوجد عند غيرهم، فلهم من هذه الطرق صفوتها وخلاصتها، كما يقول شيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله-: "فهم أكمل الناس عقلاً؛ وأعدلهم قياساً، وأصوبهم رأياً، وأسدّهم كلاماً، وأصحهم نظراً، وأهداهم استدلالاً، وأقومهم جدلاً، وأتمهم فراسة، وأصدقهم إلهاماً، وأحدّهم بصراً ومكاشفة، وأصوبهم سمعاً

٣- تحريم النظر في كتب الكلام، لابن قدامة، ص: (٤٠ - ٤١).

٤ - شرف أصحاب الحديث، ص: (٨ - ٩).

ومخاطبة، وأعظمهم وأحسنهم وجدًا وذوقًا، وهذا هو للمسلمين بالنسبة إلى سائر الأمم، ولأهل السنة والحديث بالنسبة إلى سائر الملل"، هذا كلام شيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله<sup>(٥)</sup>.

وبهذا نكون قد انتهينا من هذا القسم الثاني وهو: الخصائص العامة.

فقد عرفنا أن أهل السنة هم الذين يحملون ميراث النبوة، وهم الذين يمثلون الإسلام الحقيقي الذي جاء به النبي -صلى الله عليه وسلم-، وأن هذا الدين يشتمل على العقائد، ويشتمل على غيرها من الأمور الفرعية، كما يقسم بعضهم، وإن كان هذا التقسيم عليه ما عليه من التحفظات، لكن المقصود هو التوضيح والبيان، وكذلك ما يتعلق بتهذيب السلوك مما يتعلق باللسان والمعاملة والرحمة ومحبة الخير للناس، واحتمال الأذى، والصبر على دعوتهم، والعدل معهم، وما أشبه ذلك من المعاني الأخلاقية التي هي من جملة الدين.

ومن أراد أن يكمل نفسه فعليه أن يأخذ هذا الدين بجملته، وأن لا يفرق بين جانب وجانب، وإنما يتلقى كما كان يتلقى أصحاب النبي -صلى الله عليه وسلم-، فكانوا يتلقون عنه العقائد، كما كانوا يتلقون عنه الأخلاق والسلوك، وما إلى ذلك من الأمور.

أقول: من أبرز هذه السمات السلوكية: أن أهل السنة مع أنهم يتفاوتون ففيهم الطوائف الثلاث التي ذكرها الله -عز وجل- بقوله: **﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ إِذِنَ اللَّهُ﴾** [فاطر: ٣٢] فهؤلاء فيهم من يجتهد لفعل مأمورات الله -تبارك وتعالى- من الواجبات والمستحبات، ويتحرز من المحرمات والمكروهات، وهؤلاء هم السابقون، وفيهم من يقتصر على الواجبات ويترك المحرمات، وفي هؤلاء أيضاً من يوجد عنده التقصير بفعل بعض الذنوب، ولربما الكبائر، وكذلك قد يترك بعض الواجبات، فهؤلاء من جملة المسلمين، والمسلمون يقع فيهم هذا وهذا، كما وقع في أصحاب الرسول -صلى الله عليه وسلم-.

ومن الطوائف التي تذكر في هذا: ما يذكر في ترجمة بعض أئمة السنة أن أحد هؤلاء الذين يحضرون مجلسه ويحبونه -وهو من العامة- خرج في حال من السكر، فمر على رجل من أهل البدع، فقال: هؤلاء هم الحنابلة، -في ذلك الوقت يسمونهم بالحنابلة كما ذكرنا-، فجاء إليه، وقال: الحنابلة ثلاثة أقسام: قسم يُعلِّمون العلم، ويتعلمون في المساجد، وقسم يتعبدون ويتزهدون، وقسم يصفعون، ثم صفعه، فهذا رجل فاسق من هؤلاء العوام كان يحب مجالس هذا العالم، ويحضر شيئاً منها.

فالحاصل: أن أهل السنة مع هذا التفاوت الواقع فيهم إلا أن الخير فيهم أغلب وأكثر وأوفر بالنسبة لغيرهم، كما أن الشر في غيرهم أكثر، يعني إذا نظرت إلى الانحرافات في الطوائف تجد أن الانحرافات كما هو معلوم الآن لو سألت أهل الحسبة فيما يقبضون من الخلوات المحرمة، وغير ذلك من المنكرات، فإنهم يجدون ذلك عند أهل الأهواء أكثر مما يجدونه عند أهل السنة والجماعة، كما هو معلوم.

فأهل السنة في الإسلام كالإسلام في الملل، فكما أنه يوجد في المسلمين ما قد يوجد في غيرهم، إلا أن الخير في المسلمين لا شك أنه أوفر وأتم وأعظم، وأكثر، وكل شر يوجد في المسلمين فلا شك أنه في غيرهم أكثر، وهكذا يقال أيضاً في المنتسبين إلى السنة والجماعة، وهذه قضية لا تخفى، وقد ذكر شيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله- في كتاب: "اقتضاء الصراط المستقيم" كثيراً من الأمور التي حاكت فيها هذه الأمة الأمم التي كانت قبلها، مصداقاً لقوله -صلى الله عليه وسلم-: **((اللتبعن سنن من كان قبلكم))**<sup>(١)</sup>، فوقعوا فيما وقع فيه من قبلهم من الحسد والبغي والبغضاء، والتناحر، والتهافت على الدنيا، وما أشبه ذلك من الأمور.

الخاصية الثانية: أنهم يضبطون الاجتهادات بالحرص على الوحدة والاتلاف، أهل الأهواء إذا اختلفوا انشعبوا وافترقوا، كما ذكرنا في حال أبي هاشم الجبائي وفي حال أبي علي الجبائي، الابن والأب، هذا يكفر هذا، وهذا يكفر هذا، فالطائفة الواحدة تتحول إلى طوائف متناحرة يكفر بعضها بعضاً، ويضلل بعضها بعضاً، أما أهل السنة والجماعة فإنهم يضبطون الاختلاف بهذا الضابط، ويكونون ممتثلين لأمر الله -عز وجل-: **{لَوْلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ}** [الأنفال: ٤٦]، ولهذا فإن الاختلاف الذي وقع بين أصحاب النبي -صلى الله عليه وسلم-، ووقع أيضاً لسلف هذه الأمة لم يوجب بينهم التدابير والتقاطع والتنازع والتفرق، فلم يتحول السلف -رضي الله عنهم- إلى فرق وطوائف يضل بعضها بعضاً، ثم بعد ذلك يأتي لهذا أتباع، ويأتي لهذا أتباع، إطلاقاً، وإنما كانوا على دين واحد، وعلى قلب رجل واحد، وإن اختلفوا في بعض اجتهاداتهم، ولربما بلغ ذلك الاختلاف إلى حد التقاتل، لكنه لا يؤدي إلى التفرق المذموم الذي وصفت، ولهذا ذكر أهل العلم كالأجري وابن بطة واللالكائي، وجماعة أيضاً ممن قبل هؤلاء: أن كل اختلاف أورث التقاطع والتدابير والتفرق والانقسام في الأمة فإنه اختلاف مذموم.

أما أصحاب النبي -صلى الله عليه وسلم- فقد اختلفوا في مسائل: هل رأى النبي -صلى الله عليه وسلم- ربه أو لم ير ربه؟ أهل السنة يختلفون: هل الكفار يرون الله -عز وجل- في عَرَصات القيامة أولاً يرونه؟.

فهذه من مسائل العلم التي اختلفوا فيها إلا أن ذلك لم يوجب بينهم تنازاعاً، وتفرقاً وتناحراً وتطاحناً، وإنما يكون ذلك بسبب الجهل، أو الهوى الذي يحصل به البغي، فالجهل: قد يظن هذا الجاهل أن هذه المسألة التي وقع الاختلاف فيها وهي من قضايا الاجتهاد أن ذلك يوجب التفرق فيناذب غيره، وينافره ويضلله، ولربما رماه بالعظائم، أو يكون ذلك بسبب الهوى الذي يوجب البغي، فهو يفعل ذلك لمنافسة، أو حسد، أو مضادة بينه وبين هذا الإنسان فيكرهه، ويفرح بزلاته، فإذا أخطأ خطأ فإنه يسارع إلى تضليله وإخراجه من أهل السنة والجماعة، ويحكم عليه بالبدعة والهوى، وما أشبه ذلك، فتتحول الطائفة الواحدة إلى طوائف متناحرة، مع أن هؤلاء يعتقدون عقيدة واحدة، ويدرسون كتباً متحدة، ويدرسون الكتاب الواحد، ويعظمون

---

٦- أخرجه البخاري، كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة، باب قول النبي -صلى الله عليه وسلم-: **((اللتبعن سنن من كان قبلكم))**، برقم (٧٣٢٠).

أئمة الإسلام جميعاً من أهل السنة والجماعة، ويقبلون الأحاديث الصحيحة، وأقوال السلف، ويعظمونهم، ومع ذلك تجد هذا التشردم والتناحر والتفرق الذي يجعل الطائفة الواحدة طوائف، وهم في الواقع لا يختلفون على الدين وإنما أوقعهم بذلك إما الجهل بما يوجب التفرق، وما لا يوجب التفرق، أو الهوى الذي يحمل على العصبية والبغي والظلم والتعدي، وتجاوز ما أمر الله - عز وجل - به، والله - عز وجل - يقول: **{فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا}** [النساء: ٥٩]، فكانوا - كما يقول الشيخ تقي الدين ابن تيمية - رحمته الله - يتناظرون في المسألة مناظرة مشاورة ومذاكرة ومناصحة، وتبقى الألفة بينهم والمحبة، وأخوة الدين، يقول شيخ الإسلام: "ولو كان كلما اختلف مسلمان في شيء تهاجرا لم يبق بين المسلمين عصمة ولا أخوة"<sup>(٧)</sup>.

وكان - رحمه الله - يقول: "إني أقرر أن الله قد غفر لهذه الأمة خطأها، وذلك يعم الخطأ في المسائل الخبرية القولية، والمسائل العملية، وما زال السلف يتنازعون في كثير من هذه المسائل، ولم يشهد أحد منهم على أحد لا بكفر ولا بفسق ولا معصية"<sup>(٨)</sup>.

والناس اليوم على أتم الاستعداد أن يتفرقوا، وينقسموا بسبب تزكية فلان، أو تجريح فلان، إن كنت تحسن الظن بفلان فيمكن أن تكون خصماً ومخالفاً وعدوًّا، وتُرمى بكل عظمة وكريهة، وإذا كنت توافقني في الحكم على هذا أو ذاك فهذا لا يكون أبداً ولا يجوز، وذلك على خلاف ما كان عليه أهل السنة والجماعة - رضي الله تعالى عنهم وأرضاهم.

الخاصية الثالثة: أنهم خير الناس للناس، كما أن الله - تبارك وتعالى - بعث نبيه محمداً - صلى الله عليه وسلم - رحمة للعالمين، أرسله بالعلم والهدى والبراهين، فكذلك أرسله بالإحسان إلى الناس، والرحمة لهم، بلا عوض، وبالصبر على أذاهم واحتماله، والله - عز وجل - يمتن عليه: **{أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَى \* وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى \* وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَى}** [الضحى: ٦ - ٨].

ذكر له ثلاث منن، ثم قال: **{فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ}** [الضحى: ٩]، كنت يتيماً **{وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ}** [الضحى: ١٠] السائل الذي يسأل عن العلم والهداية، والسائل الذي يطلب المعونة والمواساة بالمال، **{وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ}** [الضحى: ١١].

فالحاصل: أن الله - عز وجل - أمر نبيه - صلى الله عليه وسلم - بهذه الأمور، وهذا سبيل أتباعه إلى يوم القيامة، ولهذا وصف الله - عز وجل - هذه الأمة بقوله: **{كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ}** [آل عمران: ١١٠] وقد قال أبو هريرة - رضي الله تعالى عنه -: "خير الناس للناس، تأتون بهم في السلاسل في أعناقهم، حتى يدخلوا في الإسلام"<sup>(٩)</sup>.

فهم يجاهدون يبذلون أنفسهم وأموالهم لمنفعة الخلق وصلاحهم، كما قال الإمام أحمد - رحمه الله -: "الحمد

٧- مجموع الفتاوى (١٧٣/٢٤).

٨- المصدر السابق (٢٢٩/٣).

٩- أخرجه البخاري، كتاب تفسير القرآن، باب **{كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ}** [آل عمران: ١١٠]، برقم (٤٥٥٧).

الله الذي جعل في كل زمان فترة من الرسل بقايا من أهل العلم، يدعون من ضل إلى الهدى، ويصبرون منهم على الأذى، يحيون بكتاب الله الموتى، ويبيصرون بنور الله أهل العمى، فكم من قتيل لإبليس قد أحيوه، وكم من ضال تائه قد هدوه، فما أحسن أثرهم على الناس، وأقبح أثر الناس عليهم" (١٠).

الخاصية الرابعة: أنهم يصدرون في جميع سلوكياتهم من كتاب الله وسنة رسوله -صلى الله عليه وسلم-، لا يتلقون ذلك من التربية الأمريكية، كما يقول -للأسف الشديد- بعضهم، ولا يتلقون ذلك من فلسفات الفلاسفة الذين ضلوا عن صراط الله المستقيم، وإنما يأخذون ذلك من كتاب الله وسنة نبيه -صلى الله عليه وسلم-، فيأمرون بما أمر الله به، وينهون عما نهى الله عنه، فيأمرون بالصبر عند البلاء، والشكر عند الرخاء، والرضا بمر القضاء، ويدعون إلى مكارم الأخلاق، ومحاسن الأعمال، ويعتقدون معنى قوله -صلى الله عليه وسلم-: ((أكمل المؤمنين إيماناً أحسنهم خلقاً)) (١١).

ويندبون إلى أن تصل من قطعك، وتعطي من حرمك، وتعفو عمن ظلمك، ويأمرون ببر الوالدين، وصلة الأرحام، وحسن الجوار، والإحسان إلى اليتامى والمساكين، وينهون عن الفخر والخيلاء والبغي، ويأمرون بمعالي الأخلاق، وتكميل المروءات، وهم في ذلك كله متبعون للكتاب والسنة، وعلى قدر اهتداء العبد بهدي النبي -صلى الله عليه وسلم- على قدر ما يحصل من الكمالات، وهذه القضايا مما يتعلق بهذه الأخلاق التي كانوا يذكرونها في عقائدهم، كما ذكر الإمام أبو بكر الإسماعيلي في اعتقاده، فيقول: "مع لزوم الجماعة، والتعفف في المأكل والمشرب والملبس، والسعي في عمل الخير، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والإعراض عن الجاهلين حتى يعلموهم ويبينوا لهم الحق، ثم الإنكار والعقوبة من بعد البيان، وإقامة العذر بينهم ومنهم" (١٢)، هذا في كتاب من كتب العقيدة.

ويقول أيضاً في موضع آخر: "ويرون مجانية البدعة والآثام والفخر والتكبر والعجب والخيانة والدغل، والسعاية" يعني الوشاية "ويرون كف الأذى، وترك الغيبة"، إلى أن قال: "ويرون تعلم العلم، وطلبه من مظانه، والجد في تعلم القرآن وعلومه، وتفسيره، وسماع سنن الرسول -صلى الله عليه وسلم-، وجمعها والنقح فيها، وطلب آثار أصحابه -رضي الله تعالى عنهم وأرضاهم" (١٣).

فالدين لا يقتصر على جزئية أو جانب من الجوانب قد تميل إليه نفس الإنسان، أو يتلقى الدين تلقياً قاصراً، بل الدين هو الأخلاق وهو العقائد، وهو الأعمال والعبادات بجميع أنواعها وصورها.

١٠- الرد على الزنادقة والجهمية، لابن حنبل، ص: (٦).

١١- أخرجه أبو داود، كتاب السنة، باب الدليل على زيادة الإيمان ونقصانه، برقم (٤٦٨٢)، والترمذي، أبواب الرضاع عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، باب ما جاء في حق المرأة على زوجها، برقم (١١٦٢)، وأحمد في المسند، برقم (٧٤٠٢)، وقال محققوه: "حديث صحيح، وهذا إسناد حسن، رجاله ثقات رجال الشيخين غير محمد بن عمرو -وهو ابن علقمة بن وقاص الليثي-، فمن رجال أصحاب السنن، وروى له البخاري مقروناً، ومسلم متابعه، وهو حسن الحديث، والحديث صحيح بمجموع طرقه وشواهده"، وصححه الألباني في صحيح الجامع، برقم (١٢٣٠).

١٢- اعتقاد أئمة أهل الحديث، ص: (٧٩).

١٣- المصدر السابق، ص: (٧).

الخاصية الخامسة: هم أهل الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والنصح للأمة، كما قال الله -تبارك وتعالى-: **{كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ}** [آل عمران: ١١٠]، فهم يحملون همّ الدعوة، ويدينون بالنصيحة للأمة، ويعتقدون معنى قول النبي -صلى الله عليه وسلم-: **{المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً}** (١٤).

ويدينون بقوله -صلى الله عليه وسلم-: **{مثل المؤمنين في توادهم، وتراحمهم، وتعاطفهم كمثل الجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى}** (١٥)، فإذا رأوا واحداً قد قصر أو أخطأ أو ترك أمر الله -عز وجل-، أو فعل شيئاً من المحرمات بادروا إليه فأمره ونهوه ونصحوه وانتشلوه من هذا التقصير الذي وقع به، ولا يشمتون بهؤلاء الذين قد وقعوا فيما وقعوا فيه من معصية الله -عز وجل-، ونحو ذلك، وإنما ينصحونهم ويرفقون بهم.

الخاصية السادسة: أن ولاءهم للحق وحده، فيوالون ويعادون على أساس الدين، ولا يمتحنون الناس بما ليس من الله -عز وجل-، فهم ينظرون إلى ما عند الإنسان أو عند الطائفة من حق وهدى ومعروف، بعيداً عن العصبية والجاهليات والألقاب التي ما أنزل الله -عز وجل- بها من سلطان؛ كما قال الشيخ تقي الدين ابن تيمية -رحمه الله-: "ليس لأحد أن يعلق الحمد والذم والحب والبغض والموالة والمعاداة بغير الأسماء التي علق الله بها ذلك، مثل: أسماء القبائل والمدائن والمذاهب والطرئق"، إلى أن يقول: "ونحو ذلك مما يراد به التعريف" (١٦)، "فمن كان مؤمناً وجبت موالاته من أي صنف كان، ومن كان كافراً وجبت معاداته من أي صنف كان، ومن كان فيه إيمان وفيه فجور أُعطي من الموالة بحسب إيمانه، ومن البغض بحسب فجوره" (١٧)، فهم يقدمون من قدمه الله ورسوله، ويؤخرون من أخره الله ورسوله، ويحبون من أحبه الله ورسوله، ويبغضون من أبغضه الله ورسوله، وهم يد واحدة، ويعذرون من أخطأ إذا كان ذلك للعدر فيه مجال (١٨)، كما سيأتي.

يقول الشيخ ابن تيمية -رحمه الله- في كلام له متين ينبغي الوقوف عنده، يقول: "إذا اجتمع في الرجل الواحد خير وشر وفجور، وطاعة ومعصية، وسنة وبدعة، استحق من الموالة والثواب بقدر ما فيه من الخير، واستحق من المعاداة والعقاب بحسب ما فيه من الشر، فيجتمع في الشخص الواحد موجبات الإكرام والإهانة، فيجتمع له من هذا وهذا كاللص الفقير تقطع يده لسرقته، ويعطى من بيت المال ما يكفيه لحاجته" (١٩).

---

١٤- أخرجه البخاري، كتاب الأدب، باب تعاون المؤمنين بعضهم بعضاً، برقم (٦٠٢٦) ومسلم، كتاب البر والصلة والآداب، باب تراحم المؤمنين وتعاطفهم وتعاضدهم، برقم (٦٧٥٠).

١٥- أخرجه مسلم، كتاب البر والصلة والآداب، باب تراحم المؤمنين وتعاطفهم وتعاضدهم، برقم (٦٧٥١).

١٦- مجموع الفتاوى (٢٢٧/٢٨).

١٧- المرجع السابق (٢٢٨/٢٨ - ٢٢٩).

١٨- انظر: المرجع السابق (٤٢٠/٣).

١٩- المرجع السابق (٢٠٩/٢٨).

الخاصية السابعة: أنهم يعملون على تأليف القلوب واجتماع الكلمة، ويحبون الخير لكل المسلمين، ويعفون، ويتجاوزون عن إساءة المسيء، وخطأ المخطئ، والله - عز وجل - يقول: **﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ﴾** [الأنفال: ١] فكل أمر يؤدي إلى الشقاق والنزاع والوحشة، وإثارة الضغائن فهم يدفعونه، ويتباعدون منه، ويحرصون كل الحرص على الوحدة على الأصول الصحيحة، على الكتاب والسنة، وصحة الاعتقاد، وينبذون الفرقة والتفرق، وهذا واضح من منهج السلف - رضي الله تعالى عنهم -، فهم يُحكّمون الكتاب والسنة على أعمالهم وأعمال غيرهم، ويجمعون الناس على ذلك، ولا يشتغلون ببنيّات الطريق التي من شأنها أن تفرق وتفسد ولا تصلح، يقول شيخ الإسلام في رسالته التي كتبها إلى بعض أصحابه بعدما حبس يقول: "تعلمون من القواعد العظيمة التي هي من جماع الدين: تأليف القلوب، واجتماع الكلمة، وصلاح ذات البين، وأهل هذا الأصل هم أهل الجماعة كما أن الخارجين عنه هم أهل الفرقة" (٢٠).

الخاصية الثامنة: أنهم أعظم الناس ثباتاً على مبادئهم وصبراً على ذلك، ولما جاء أبو سفيان ومن معه إلى هرقل، وسألهم السؤالات المعروفة، كان مما سألهم: "هل يرجع أحد منهم سخطة لدينه بعد أن دخل فيه؟ فقال له أبو سفيان: لا" (٢١).

فالحاصل: أنه استدل بهذا وبغيره على صحة ما جاء به الرسول - صلى الله عليه وسلم. فأهل السنة والحديث لا يُعلم أحدٌ كما يقول شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله -: "من علمائهم، ولا صالحٌ من عامتهم رجع قط عن قوله واعتقاده، بل هم أعظم الناس صبراً على ذلك، وإن امتحنوا بألوان المحن، وفُتتوا بأنواع الفتن، وهذه حال الأنبياء - عليهم الصلاة والسلام -، وأتباع الأنبياء من المتقدمين كأهل الأخدود، ونحوهم، وكسلف هذه الأمة - رضي الله تعالى عنهم - من الصحابة والتابعين، وغيرهم من الأئمة، حتى كان مالك - رحمه الله - يقول: "لا تغبطوا أحداً لم يصبه في هذا الأمر بلاء" (٢٢).

فهم ثابتون على المنهج؛ لأنهم قد اقتنعوا وعلموا وأيقنوا بأنه حق، فهم لا يتقلبون كما يتقلب أهل الأهواء من أهل الكلام، وغيرهم، فهو في كل يوم على نحلة ودين ورأي ومذهب، ولهذا قال عمر بن عبد العزيز - رحمه الله -: "من جعل دينه غرضاً للخصومات أكثر التنقل" (٢٣).

وقد قال الإمام مالك: "كلما جاءنا رجل أجدل من رجل تركنا ما نزل به جبريل على محمد - صلى الله عليه وسلم - لجدله" (٢٤).

---

٢٠ - مجموع الفتاوى (٥١/٢٨).

٢١ - أخرجه البخاري، كتاب الجهاد، باب دعاء النبي - صلى الله عليه وسلم - إلى الإسلام والنبوة، وأن لا يتخذ بعضهم بعضاً أرباباً من دون الله، رقم: (٢٩٤١)، ومسلم، كتاب الجهاد والسير، باب كتاب النبي - صلى الله عليه وسلم - إلى هرقل يدعوه إلى الإسلام، رقم: (٤٧٠٧).

٢٢ - مجموع الفتاوى (٥٠/٤).

٢٣ - الإبانة (٥٠٣/٢)، والسنة، للخلال (١٠٥/٦).

٢٤ - شرح أصول اعتقاد أهل السنة، للالكائي (١٤٤/١)، وذم الكلام وأهله، للهروي (٦٩/٥)،



ولما تبعه رجل وأراد أن يناظره -كما أشرنا سابقاً- وقال له: اسمع مني شيئاً أكلمك به، وأحاجك، وأخبرك رأيي؟ قال: فإن غلبتني؟ قال: إن غلبتك اتبعتني، قال: فإن جاء رجل آخر فكلمنا فغلبنا، قال: نتبعه، قال مالك -رحمه الله-: يا عبد الله، بعث الله -عز وجل- محمداً -صلى الله عليه وسلم- بدين واحد، وأراك تنتقل من دين إلى دين (٢٥).

الإمام مالك ينقل كلام عمر بن عبد العزيز: "من جعل دينه غرضاً للخصومات أكثر التنقل"، ولهذا عُرف عن أهل البدع كثرة التقلب والتلون والتنقل.

أما أهل السنة فلا يحفظ عن واحد منهم من أئمتهم وعلمائهم أنه تحول من مذهب أهل السنة إلى مذهب من مذاهب أهل البدع، كما هو معلوم، فهم ثابتون، الثبات على المبدأ.

الخاصية التاسعة: أنهم يلتزمون العدل والإنصاف مع العدو والصديق، امتثالاً لقول الله -تبارك وتعالى-: **{فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَىَٰ أَنْ تَعْدِلُوا}** [النساء: ١٣٥].

وامتثالاً لقوله: **{وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاٰنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا اِعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ}** [المائدة: ٨].

**{وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ}** [الأنعام: ١٥٢]، فالتزام العدل مع أعدائهم ظاهر في كلامهم وسيرتهم وأخبارهم، فلا يعميهم ما يجدونه عند خصومهم من الضلال عن قول الحق فيهم، ولا يرمونهم بما ليس فيهم من الباطل والقبائح، وهذا بخلاف منهج أهل الأهواء الذين يرمون كل من خالفهم في شيء من مقالاتهم بالشنائع والتهم، بل لربما اتهموه في عرضه ورموه بكل قبيح، مع أنهم كانوا يعظموه غاية التعظيم، ويرون أنه من كبرائهم، هذه صفة من صفات اليهود؛ كما في خبر إسلام عبد الله بن سلام -رضي الله تعالى عنه- قالوا عنه: "إنه خيرنا وابن خيرنا"، فلما أخبرهم النبي -صلى الله عليه وسلم- أنه أسلم، قالوا: شرنا وابن شرنا" (٢٦).

فالحاصل: أن أهل السنة ينصفون مع القريب والبعيد، والصديق والعدو، ويفرقون بين الناس، فالناس منهم الكفار فهؤلاء لا يحبونهم، ولا يوالونهم أبداً، وإنما يجاهدونهم في الله حق جهاده، ومنهم أهل بدع وعصيان فهؤلاء يُحمدون بما عندهم من حق ومعروف إذا اقتضى المقام ذلك، ويُرد ما عندهم من البدع والانحرافات والضلالات، ويبين أهل السنة أمرها، ولا يسكتون عنها، ومن كان داعياً إلى بدعته كان الموقف معه بحسب حاله.

ومن إنصافهم -رضي الله تعالى عنهم- أن كل حق مع طائفة فإنهم يوافقون هؤلاء فيه، ويقبلونه منهم، ويردون باطلهم، من الناس من تحمله العداوة والبغضاء أن يرد الحق الذي جاء في الكتاب والسنة؛ لأنه يبغض هذا الذي قاله، أو عُرف به، أو اشتغل به، بل وُجد من أهل البدع من سيقته له آية من كتاب الله -عز وجل- فاستتكف وأعرض، ثم قال: هذه آية وهابية، إلى هذا الحد؛ لأنه يسمع كثيراً من هؤلاء الذين يلزمهم بهذه الفري يرددون هذه الآية، فرد كلام الله -عز وجل-، يقول الحافظ ابن القيم -رحمه الله-:

"فكل حق مع طائفة من الطوائف فهم يوافقونهم فيه، وهم براء من باطلهم، فمذهبهم جمعُ حق الطوائف بعضه إلى بعض، والقول به، ونصره، وموالاته أهله من ذلك الوجه، ونفي باطل كل طائفة من الطوائف، وكره ومعاداة أهله من هذا الوجه، فهم حكام بين الطوائف لا يتحيزون إلى فئة منهم على الإطلاق، ولا يردون باطلاً بباطل، ولا يحملهم شأن قوم يعادونهم ويكفرونهم على ألا يعدلوا فيهم، بل يقولون فيهم الحق، ويحكمون في مقالاتهم بالعدل" (٢٧).

كما أنهم لا يهدرون العالم بزلة، أو هفوة، أو خطأ أخطأ فيه، كما يقول شيخ الإسلام تقي الدين ابن تيمية -رحمه الله-: "لو قدر أن العالم الكثير الفتاوى أخطأ في مائة مسألة لم يكن ذلك عيباً" (٢٨)؛ لأنه لا يخلو إنسان من عيوب وأخطاء مهما كان فضله، من شأن الإنسان أن يخطئ وأن يزل، ولكن كما قال سعيد بن المسيب -رحمه الله-: "ليس من شريف ولا عالم ولا ذي سلطان إلا وفيه عيب ولا بد، ولكن من الناس من لا تذكر عيوبه، من كان فضله أكثر من نقصه وهب نقصه لفضله" (٢٩).

وابن المبارك -رحمه الله- يقول: "إذا غلبت محاسن الرجل على مساوئه لم تذكر المساوئ، وإذا غلبت المساوئ على المحاسن لم تذكر المحاسن" (٣٠).

ويقول شيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله-: "ومن جعل كل مجتهد في طاعة أخطأ في بعض الأمور مذموماً معيباً ممقوتاً فهو مخطئ ضال مبتدع" (٣١).

ويقول تلميذه ابن القيم: "ومن له علم بالشرع والواقع يعلم قطعاً أن الرجل الجليل الذي له في الإسلام قدم صالح، وأثار حسنة، وهو من الإسلام وأهله بمكان قد تكون منه الهفوة والزلة، وهو فيها معذور، بل ومأجور لاجتهاده، فلا يجوز أن يُتبع فيها، ولا يجوز أن تهدر مكانته وإمامته ومنزلته من قلوب المسلمين" (٣٢).

ويقول في موضع آخر متحدثاً عن فضل أئمة المسلمين: "وأن فضلهم وعلمهم ونصحهم لله ورسوله لا يوجب قبول كل ما قالوه، وما وقع في فتاويهم من المسائل التي خفي عليهم فيها ما جاء به الرسول -صلى الله عليه وسلم-، فقالوا بمبلغ علمهم، والحق في خلافها، لا يوجب اطّراح أقوالهم جملة، وتنقصهم، والوقية فيهم، فهذان طرفان جائران عن القسط، وقصد السبيل بينهما، فلا تُؤتم ولا نعصم، ولا نسلك بهم مسلك الرافضة في "علي"، ولا مسلكهم في "الشيخين" (٣٣).

ويذكر ابن رجب -رحمه الله-: أن أكثر الأئمة غلطوا في مسائل يسيرة، مما لا يقدر في إمامتهم وعلمهم

---

٢٧- شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل (ص: ٥٢).

٢٨- مجموع الفتاوى (٣٠١/٢٧)

٢٩- سير أعلام النبلاء (٣٩٨/٨).

٣٠- سير أعلام النبلاء (٣٧٦/٧)، وتذكرة الحفاظ (٢٠٣/١).

٣١- مجموع الفتاوى (١٥/١١).

٣٢- إعلام الموقعين (٢٨٣/٣).

٣٣- المصدر نفسه.

وعملهم، فكان ماذا؟ يقول: "لقد انغمر ذلك في محاسنهم، وكثرة صوابهم، وحسن مقاصدهم، ونصرهم للدين، والانتصاب للتقريب عن زلاتهم ليس محموداً ولا مشكوراً، لاسيما في فضول المسائل التي لا يضر فيها الخطأ، ولا ينفع فيها كشف خطئهم وبيانه"<sup>(٣٤)</sup>.

ويذكر في موضع آخر يقول: "رحم الله من أساء الظن بنفسه علماً وعملاً وحالاً، وأحسن الظن بمن سلف، وعرف من نفسه نقصاً، ومن السلف كمالاً، ولم يهجم على أئمة الدين، يقول: وإن أنت أبيت النصيحة، وصار شغلك الرد على أئمة المسلمين، والتفتيش عن عيوب أئمة الدين، فإنك لا تزداد لنفسك إلا عُجباً، ولا لطلب العلو في الأرض إلا حُباً، وعن الحق إلا بعداً، ومن الباطل إلا قرباً"<sup>(٣٥)</sup>.

وفي ترجمة ابن المديني يقول الذهبي -رحمه الله-: "ثم ما كل أحد فيه بدعة، أو له هفوة، أو ذنوب، يُقدح فيه بما يوهن حديثه، ولا من شرط الثقة أن يكون معصوماً من الخطايا والخطأ، ولكن فائدة ذكرنا كثيراً من الثقات الذين فيهم أدنى بدعة أو لهم أوهام يسيرة في سعة علمهم أن يُعرف أن غيرهم أرجح منهم وأوثق إذا عارضهم أو خالفهم، فزِن الأشياء بالعدل والورع"<sup>(٣٦)</sup>.

وهذا الشاطبي -رحمه الله- يقول: "إن زلة العالم لا يصح اعتمادها من جهة، ولا الأخذ بها تقليداً له"، إلى أن يقول: "كما أنه لا ينبغي أن يُنسب صاحبها إلى النقصير، ولا أن يُشنع عليه بها، ولا ينتقص من أجلها، أو يعتقد فيه الإقدام على المخالفة بحثاً، فإن هذا كله خلاف ما تقتضي رتبته في الدين"<sup>(٣٧)</sup>.  
ومن المتأخرين الصنعاني يقول: "وليس أحد من أفراد العلماء إلا وله نادرة ينبغي أن تغمر في جنب فضله وتجتنب"<sup>(٣٨)</sup>.

ومن المعاصرين يقول الشيخ بكر أبو زيد -رحمه الله-: "قد ترى الرجل العظيم يشار إليه بالعلم والدين وقَفَز القنطرة في أبواب التوحيد على أصول الإسلام والسنة، وجادة سلف الأمة، ثم يحصل منه هفوة أو هفوات أو زلة أو زلات، فلتعلم هنا أنه ما كل عالم ولا داعية كذلك يؤخذ بهفوته ولا يتبع بزلاته فلو عمل ذلك لما بقي معنا داعية قط.

وكلُّ راد ومردود عليه، والعصمة لأنبياء الله ورسله، يُنبه على خطئه، ولا يُجرم به، فيُحرم الناس من علمه، وما يحصل على يديه من الخير، ومَنْ جرَّم المخطئ في خطئه الصادر عن اجتهاد له فيه مَسْرَح شرعاً فهو صاحب هوى يحمل التبعة مرتين تبعة التجريم وتبعة حرمان الناس من علمه"<sup>(٣٩)</sup>.

وأيضاً من إنصافهم -رضي الله تعالى عنهم-: أن كل من اجتهد وأخطأ فإنهم يقولون: إن الله يغفر له خطأه وزلته وعيبه، ولا يجرمونه بهذا الخطأ، ولا يؤثِّمونه، كما قال شيخ الإسلام: "ليس كل من خالف في

٣٤- لم أقف عليه.

٣٥- لم أقف عليه.

٣٦- ميزان الاعتدال (١٤١/٣).

٣٧- الموافقات (١٣٦/٥ - ١٣٧).

٣٨- سبل السلام (٢٥١ / ١).

٣٩- تصنيف الناس بين الظن واليقين (ص: ٤٣-٤٤).

شيء من هذا الاعتقاد يجب أن يكون هالكاً، فإن المنازع قد يكون مجتهداً مخطئاً يغفر الله خطأه، وقد لا يكون بلغه في ذلك من العلم ما تقوم به عليه الحجة، وقد يكون له من الحسنات ما يمحو الله به سيئاته، وإذا كانت ألفاظ الوعيد المتناولة له لا يجب أن يدخل فيها المتأول والقانت وذو الحسنات الماحية والمغفور له، وغير ذلك، فهذا أولى<sup>(٤٠)</sup>.

ويعتذر لبعض الشيوخ الذين وقعوا في بعض الأخطاء، فيقول: "لكن شيوخ أهل العلم الذين لهم لسان صدق، وإن وقع في كلام بعضهم ما هو خطأ منكر، فأصل الإيمان بالله ورسوله إذا كان ثابتاً غفر لأحدهم خطؤه الذي أخطأه بعد اجتهاده"<sup>(٤١)</sup>.

ويقول أيضاً: "قد يكون صديقاً عظيماً، فليس من شرط الصديق أن يكون قوله كله صحيحاً، وعمله كله سنة"<sup>(٤٢)</sup>، يعني ليس بالضرورة أن الناس يوافقونك مائة بالمائة على كل اجتهادك، وما خلقهم الله لهذا، وما أمرهم من أجل أن يلغوا عقولهم فيوافقوك في الاجتهادات والنظرات والأقوال والأحكام.

وذكر شيخ الإسلام -رحمه الله- ما يقع فيه بعضهم من الاندفاع في الحكم في بعض المسائل الاجتهادية التي يختلفون فيها مع غيرهم، يذكر أنهم لربما ذموا المخالف، واستحلوا عرض إخوانهم، ووقعوا فيما حرمه الله -عز وجل- عليهم، مع أن الرجل قد تجده صواماً قواماً، ومع ذلك تجد لسانه يفرى في أعراض أهل العلم والفضل والخير والمعروف، كما قال ابن القيم -رحمه الله-: "ومن العجب أن الإنسان يهون عليه التحفظ والاحتراز من أكل الحرام والظلم والزنا والسرقعة، وشرب الخمر، ومن النظر المحرم، وغير ذلك، ويصعب عليه التحفظ من حركة لسانه، يقول: وكم ترى من رجل يتورع عن الفواحش والظلم ولسانه يفرى في أعراض الأحياء والأموات لا يبالي ما يقول"<sup>(٤٣)</sup>.

وقد قال عمر بن الخطاب -رضي الله عنه-: " لا يعجبكم من الرجل طنطنته، ولكنه من أدى الأمانة، وكف عن أعراض الناس فهو الرجل"<sup>(٤٤)</sup>.

ويقول الذهبي -رحمه الله-: "إذا كان مثل كبراء السابقين الأولين قد تكلم فيهم الروافض والخوارج، ومثل الفضيل يُتكلم فيه، فمن الذي يسلم من السنة الناس؟، لكن إذا ثبتت إمامة الرجل وفضله لم يضره ما قيل فيه، وإنما الكلام في العلماء مفتقر إلى وزن بالعدل والورع"<sup>(٤٥)</sup>.

فالمقصود: أن أهل السنة يلاحظون هذه المعاني، بخلاف غيرهم فهم لا يقصدون أن تكون كلمة الله هي العليا، كما يقول شيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله-: "بل يغضبون على من خالفهم وإن كان مجتهداً

٤٠ - مجموع الفتاوى (١٧٩/٣).

٤١ - الصفدية، لابن تيمية (٢٦٥/١).

٤٢ - اقتضاء الصراط المستقيم (١٠٦/٢).

٤٣ - الجواب الكافي، ص: (٣٦٦).

٤٤ - أخرجه البيهقي في السنن الكبرى، برقم (١٢٦٩٥)، وابن المبارك في الزهد، برقم (٦٩٥)، وابن أبي الدنيا في مكارم

الأخلاق، (ص: ٨٩)، برقم (٢٧٠).

٤٥ - سير أعلام النبلاء (٤٤٨/٨).

معذوراً لا يُغضب الله - عز وجل-، ويرضون عن وافقهم وإن كان جاهلاً سيئ القصد، متاجراً ليس له علم ولا حسن قصد"، فيفضي بهم هذا، كما يقول شيخ الإسلام إلى "أن يحمدا من لم يحمده الله ورسوله، ويذموا من لم يذمه الله ورسوله، وتصير موالاتهم على أهواء أنفسهم لا على دين الله ورسوله -صلى الله عليه وسلم" (٤٦).

والمقصود: أن من عُرف بالخير والفضل لم يقبل فيه القرح والعيب إلا ببينة؛ كما قال الحافظ ابن عبد البر -رحمه الله-: "من صحت عدالته، وثبتت في العلم إمامته، وبانت ثقته، وبالعلم عنايته، لم يُلتفت فيه إلى قول أحد إلا أن يأتي في جرحه ببينة عادلة" (٤٧)، بما يوجب تصديقه فيما قاله لبراءته من الغل والحسد والعداوة والمنافسة.

وهذا كلام ينبغي للإنسان أن يعرض نفسه عليه، وانظر إلى حال بعض من فارقوا ذلك وخالفوه، هذا الشوكاني -رحمه الله- يقول: "أدركت في أوائل أيام طلبي رجلاً يقال له: الفقيه صالح النهمي، قد اشتهر في الناس بالعلم والزهد، وطلب علوم الاجتهاد طلباً قوياً، فأدركها إدراكاً جيداً، فرجع يديه في بعض الصلوات، ورآه يفعل ذلك بعض المدرسين في علم الفقه المشهورين بالتحقيق فيه، والإتقان له، فقال: اليوم ارتد الفقيه صالح" (٤٨)، من أجل أنه رفع يديه في الصلاة وهم لا يرون الرفع.

وذكر الشوكاني -رحمه الله- جهالات بعض طلاب العلم الذين فارقوا هذه التربية التي كان يتربى عليها أهل السنة والجماعة، فإذا خالفهم أحد المذاهب عادوه عداوة أشد من عداوتهم لليهود والنصارى؛ كما يقول الشوكاني -رحمه الله-: "وظنوا أنه على شريعة أخرى، وعلى دين غير دين الإسلام، وأوقعوا في أذهان العوام أنه ناصبي"، أي مبغض لعليّ -رضي الله عنه- يقول: "فانظر هذا الصنيع الشنيع الذي هو شبيه بلعب الصبيان" (٤٩).

بل من إنصاف أهل السنة والجماعة: أنهم يقولون بأنه قد يقوم ببعض جوانب الدين بعض المفضولين في بعض النواحي والأمكنة أو الأوقات، كما يقول شيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله- يقول: "إذا كان الشخص -أو الطائفة- مرجوحاً في بعض الأحوال لم يمنع أن يكون قائماً بأمر الله وأن يكون ظاهراً بالقيام بأمر الله عن طاعة الله ورسوله -صلى الله عليه وسلم" (٥٠).

انظر إلى هذا وانظر إلى حالنا إذا أبغضنا أحداً من الناس، فإننا نهجر كل فضيلة وكل حسنة عنده، وقد أحببت أن أورد هذه النصوص في الإنصاف والعدل من كلام هؤلاء الأئمة بحروفها وألفاظها. فهذه هي خصائص أهل السنة والجماعة -رضي الله تعالى عنهم وأرضاهم.

والمخالفون لهم، الخارجون عن هذه الخصائص هم على أحوال: إما أن يكون هؤلاء لهم أصول كما ذكرنا

٤٦- منهاج السنة النبوية (١٧٥/٥).

٤٧- جامع بيان العلم (١٥٢/٢).

٤٨- أدب الطلب، ص: (٦١).

٤٩- المصدر نفسه.

٥٠- مجموع الفتاوى (٤٤٨/٤).

كالذي يعتمد العقل مثلاً، ويقدمه على النقل، أو الذي يعتقد العصمة لبعض البشر غير الأنبياء والرسل - عليهم الصلاة والسلام-، أو أصحاب الكشف الصوفي، أو الرؤى، أو نحو ذلك، وطائفة أخرى وهم الذين ألبس عليهم ببعض الفلاسفات، فصاروا يتكلمون في قضايا لربما لا يدركون أبعادها، وكثير من هؤلاء ممن درسوا في بلاد الغرب، وتأثروا بما عند أولئك من مفاهيم مغلوطة، ومنحرفة.

والطائفة الثالثة: هم الذين يوافقون على هذه الأصول ويقررونها، ويعظمون هؤلاء الأئمة من السلف - رضي الله تعالى عنهم-، ويتلقون كلامهم من الناحية النظرية ويقررون قضايا الاعتقاد تقريراً حسناً من الناحية النظرية، ولكنهم من الناحية العملية يفارقون ذلك لهوى أو لأي سبب من الأسباب، فمنهم من يطلب الشهرة، فيأتي بالعجائب، والمفارقات والعظائم والشناعات والغرائب.

ومن هؤلاء من يحمله البغض والشنآن لطائفة أو لقوم لا يحبهم -حسداً، أو لغير ذلك- على رد ومخالفة ما هم عليه، فيأتي بالعجائب والغرائب، وإذا أردت أن تعرف موقفه فانظر إلى حال من يبغضهم فستعرف أنه مباشرة في الطرف الآخر، ولاشك أن هذا انحراف، فالقضايا التي تقرر من الناحية النظرية شيء، والقضايا التي تقرر من الناحية العملية أو التي يعمل بها شيء آخر.

ومنهم من يتطلع إلى العالمية، هو من الناحية النظرية يقرر هذه القضايا، ولكنه من الناحية العملية يخالفها، يتطلع إلى العالمية، فهو في زعمه يخاطب العالم على اختلاف مشاربهم، فهو يريد أن يكون مقبولاً عند سائر الطوائف من الرافضة والمعتزلة، من العقلانيين، من الصوفية، من جميع الملل والأهواء حتى الكفار لا يريد أن يغضبهم، وأن يجرح مشاعرهم، فهو يتكلم بكلام فيه شيء من محاولة الإرضاء والاستمالة لجميع هذه الطوائف، فلا يضبط كلامه وعمله بميزان أهل السنة والجماعة، ولذلك تجد هذا الإنسان لربما يذهب إلى هؤلاء الضلال والمبتدعة في أماكنهم وفي منندياتهم وفي محافلهم، ويجلس معهم، ويتحدث معهم، ويتخذ هؤلاء الأخدان والخلان، ويتصور معهم، ولا يجد في ذلك غصاصة بحال من الأحوال، على خلاف المفاهيم التي كان يقررهما، وينظر لها، وقد درسها، وترى عليها، ونشأ عليها، لكن هو يقول: أنا أخاطب العالم جميعاً، ولا أخاطب فئة محددة، لا أخاطب أهل السنة المحضة، وإنما أخاطب العالم فلا بد أن يكون هذا الخطاب يستميل الجميع.

ومن هؤلاء من يكون موقفه بحسب من يطلب مرضاته، إذا كان يريد إرضاء العامة مثلاً فهو يتكلم بما يرضي العامة، وإذا كان في بيئة يميلون إلى التصوف لربما يتحول إلى صوفي، وإذا كان في بيئة تميل إلى المنهج العقلاني الاعتزالي فهو يميل إلى هذا المنحى، وإذا كان في بيئة السلطة مثلاً لا تفرق بين النصارى والمسلمين، وأن هؤلاء جميعاً من المواطنين، ونحو ذلك، فهو يتكلم عن النصارى بأنهم إخوانه، وأنه لا عداوة بيننا، ولا مشكلة مع النصارى، وإنما تجمعنا الأخوة، نحن نجتمع في الإيمان بالله -عز وجل- والنصارى من إخواننا، وكلاماً مثل هذا، وهكذا كل بحسبه.

فالعبد ينبغي أن يحرص كل الحرص على معرفة طريق أهل السنة والجماعة من الناحية النظرية، وأن يتربى على ذلك من الناحية العملية، وقد لا يستطيع أو قد يعجز عن القيام ببعض ما أمر الله -عز وجل- لسبب أو لآخر، فيسعه السكوت، ولكن لا يسعه أن يتكلم بالباطل، وأن يلبس على الناس، وأن

يتلون، فهو في كل مرة بلون ومذهب، فهذا لا يجوز ولا يسوغ بحال من الأحوال لمن أراد ما عند الله - تبارك وتعالى-، وكما ذكرنا: **{لَا يَكْلَفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا}** [البقرة: ٢٨]، نحن بحاجة إلى تقرير مثل هذه القضايا كثيراً، في مجالسنا، وفي دروسنا ومنتدياتنا، وفي الأنشطة التي تقام في المراكز الصيفية، وفي غيرها، تقرر هذه الموضوعات وتكرر؛ لأنه قد كثر التلبيس والتضليل.

وهذا المنهج الذي هو منهج أهل السنة والجماعة هو الذي يحارب في مثل هذه الأيام، وهو الذي ينتقص وتشن عليه الحرب الشعواء، وإن اختلفت المنطلقات التي ينطلق منها هؤلاء الذين يحاربونه، فينبغي أن يثبت العبد على أمر الله - عز وجل-، وعلى الحق الذي عرفه مما جاء به الرسول -صلى الله عليه وسلم-، وأن لا يزيغ عنه، وأن يعلمه غيره، ويتذاكر مع إخوانه في مثل هذه القضايا، وأن يسأل ربه التثبيت دائماً.

والله أعلم، وصلى الله على نبيينا محمد، وعلى آله وصحبه.